

الوصف العام لمدينة الحضر

حتى تتمكن من رسم صورة واضحة عن الديانة الحضرية وأثر المحيط الحضاري والجغرافي عليها لا بد من أخذ وصف عام عن مدينة الحضر.

الحضر مدينة شبه دائرية قطرها نحو ٢ كم، والسبب في بناء المدينة بشكل شبه دائري هو لأسباب دفاعية، فالعدو المهاجم إن دخلها لا بد له أن ينعطف بزواوية قائمة ٩٠ درجة وهذا يؤدي إلى أن يقتل من حركة الغزاة عند الدخول ويجعلهم في مرمى رماة المدينة.

يلف المدينة سور ترابي من جميع جهاتها فضلاً عن وجود أربعة أبراج على السور الخارجي لا تزال معالمها شاخصة للعيان واقعة بالقرب من السور الترابي وهي أماكن للرصد والحراسة.

وبعد السور الترابي بنحو ٥٠٠ م خندق عميق محكم الجانب يتراوح عمقه (٤ - ٥ م) ويعرض (٨ م) وقد بني جانبه القريب من المدينة على شكل جدار حجري مرصوف من الأرض الصخرية البكر، وأعتقد أن هذا الخندق كان يُملأ بالمياه في أيام السنة للاستفادة منه عند الحاجة أو لزراعة المناطق المحيطة بالمدينة، وربما كان يُملأ عند تعرض المدينة للخطر ليكون مصداً صناعياً لإعاقة القوات المهاجمة، وفي حالة عبور هذه القوات الغازية ستكون محصورة بين الخندق والسور وهذا يسهل الهجوم عليها عن طريق الخندق بمساعدة القبائل العربية المتنقلة في بادية الجزيرة في الوقت الذي تقوم فيها القوات الحضرية الحامية للسور بالضغط عليها.

يأتي بعد هذا الخندق سور المدينة الداخلي الذي بنيت الأجزاء السفلى منه بالحجارة والعليا باللبن وساعدت أرض الحضر القوية على احتمال هذا السور المدعم بـ(١٦٣) برجاً، وهذه الأبراج نوعين النوع الأول أبراج صلدة واجهتها الخارجية من الحجارة المهندمة وقد تفاوتت ارتفاعها فقد امتد بعضها إلى ٧ م وعمق ٨ م وأبراج أخرى تجاوزت في امتدادها ١٠ م وعمق ١١ م، ويعود ذلك إما لطبيعة الأرض أو أن بناء السور من اللبن في أجزائه العليا جعلها تتحمل هذه الأبراج في مواقع ولا تتحمل في مواقع أخرى أو نوع من الهندسة المعمارية.

أما النوع الثاني من الأبراج فهي اصغر امتداداً وعمقاً وتكون مجوفةً بدليل وجود مزاغل، فقد بلغت عند واجهة الأبراج الثانوية ٦٠ سم ذات إطار حجري ملصوق بالجص لتقويته.

وللمدينة أربع بوابات مزورة (منحرفة) مشيدة على سورها الرئيس بالاتجاهات الأربعة وهذا يساعدها على الرصد بالاتجاهات المختلفة، وقد تميزت بوابات مدينة الحضر بمناعتها لكي يتعذر على العدو المهاجم اقتحامه.

وقد صممت الجهة الشمالية والغربية بحيث يكون يمين الداخل جهة أبراج السور مما يجعل اليد الحاملة للسلاح معرضة للقذف من أعلى، أما المدخل الجنوبي والشرقي فقد صُمم بطريقة تختلف عن الطريقة السابقة، وسبب الاهتمام بالجهة الشمالية والغربية لأن الإمبراطورية الرومانية كانت تمثل تلك الجهات مما جعلها (الحضر) عصابة في وجه الغزاة الرومان الذين قاموا بأكثر من حملة منها حملة تراجان (٩٨ - ١١٧م) الذي فشل في السيطرة عليها.

أما حملة سبتيموس سيفيروس (١٩٣ - ٢١١م) الذي قام بمحاصرتها عام ١٩٨م فقد انسحب وقام بمحاصرتها مرة أخرى في العام التالي ١٩٩م وفشل فشلاً ذريعاً في السيطرة عليها بفضل أسوارها الحصينة.

أما الجهة الشرقية والجنوبية فلم تُصمم بهذا الشكل وقد ذكر الدكتور ماجد الشمس أنهما كانتا ثانويتان، ويبدو أن عدم الاهتمام بهذين الجانبين يعود إلى أن تلك الجهات كانت تمثل امتداد الإمبراطورية الفرثية، والحضر هي ضمن الدولة الفرثية ومرتبطة معها بمواثيق ومعاهدات منها الدفاع المشترك وتقديم الدعم عند الحاجة، وهذا يفسر سبب دخول الساسانيين بقيادة سابور إلى المدينة وسهولة تدميرها على الرغم من حصاره الذي دام عاماً كاملاً (٢٤٠ - ٢٤١م).

وتضم الحضر العديد من المعابد التي ميزت هذه المدينة إذ أعطت لها أهمية دينية فأصبحت قبلة للقبائل العربية في الجزيرة الفراتية، فالمعبد الكبير (معبد الإله الشمس) يقع في وسط المدينة فضلاً عن المعابد الصغيرة المنتشرة في أرجاء مدينة الشمس.

تقع بين المعابد الصغيرة والمعبد الكبير مجاميع من الأطلال ويبدو أنها بقايا أحياء سكنية ولا يخلو بيت فيها من بئر، فقد كان الحضر يعمدون في ماء شربهم على الآبار.

وفي المدينة مدافن كثيرة ولاسيما في القسم الشرقي وتكون على هيئة أبراج مشيدة بالحجر، وأعتقد أن موقع المدافن في القسم الشرقي يتعلق بشروق الشمس (الإله الرئيس) في مدينة الحضر، أما فيما يخص شكل المدافن التي تكون على شكل أبراج مشيدة فاعتقد أن هذه الأبراج هي مقر الإله (نرجول) حارس مدافن المدينة.

والذي ينظر إلى خارطة مدينة الحضر يرى أن مبانيتها لم تخضع لنسق أو تخطيط مسبق على الرغم من أن المدن المعاصرة والسابقة لها خضعت إلى تخطيط سواء من ناحية شكلها الخارجي أو من ناحية شوارعها ومبانيها في المدة التي ساد فيها الأسلوب الشبكي (الهيبودامي) (*) الذي يتميز بوجود شوارعين رئيسيين يتقاطعان وسط المدينة والذي يقسمها إلى أربعة أقسام تقسم بدورها إلى حارات أصغر، بل اتبعت أسلوباً غريباً في تخطيط المدينة يعتمد على جعل المعبد الكبير في وسط المدينة ومن ثم تنظيم المدينة من حوله.

(*) الهيبودامي: هو أسلوب روماني في تخطيط المدن نسبة إلى (هيبوداموس) من مدينة ملتوس في بلاد اليونان، (ماجد عبد الله الشمس، الحضر، ص ٣٠).

